الإسهام الثقافي والعلمي لعلماء توات (علماء ومخطوطات)

الأستاذ دبوب محمد

جامعة أدرار

الملخص:

تمثل المخطوطات في منطقة توات، الخزان الفكري، والعلمي، في كل الدراسات وهي المحرك الأساسي في فهم الكثير من العلوم الفقهية، والمعرفية.

حيث تخصص فيها مجموعة من العلماء، اتقنوا صنع التأليف من كتب في الفقه، والتصوف، والبلاغة، والأدب، والتراجم ...

ويمثل القرن الثامن عشر الميلادي، العصر الذهبي في تاريخ المنطقة بالنظر إلى الكم الهائل من العلماء الذين ظهروا فيها.

كل هذا ما كان ليظهر لولا وجود نخبة من العلماء، ورجال الفكر والأدب الذين تتمتع ذاكرتهم الغزيرة بالإنتاج العلمي والمعرفي، في الاجتهاد والتجديد.

Résumé :

La région du Touat n'a été aux yeux du monde extérieur (après la période de la conquête musulmane du Maghreb Arabe) qu' une oasis verdoyante, lieu de transit de caravanes commerçantes vers les pays d' Afrique de l' ouest, sachant que la region était loin des centres urbains, elle fut épargnée des conflits et guerres vécus par le Maghreb Arabe.

Et c'est pour cela que les peuples l' ont choisie comme refuge pour fuir l'ennemi. Ils se sont établi au Sahara, malgré l'hostilité de la nature, plutôt que de se plier à la domination de leurs gouvernants.

Le Touat est restée ouvert à l'immigration des populations venues pour des circonstances diverses depuis la

conquête musulmane du Maghreb Arabe jusqu' au 18eme siècle.

مقدمة :

يعتبر القرنان الثاني عشر الهجري ،و الثالث عشر الهجري ،الثامن عشر الميلادي ، والتاسع عشر الميلادي، أخصب عهود منطقة توات ، لما

ظهر بها من علماء ومؤلفات علمية وقد تجسدت الظاهرة العلمية بوضوح بإقليم تينجورارين في القرن الحادي عشر الهجري ، السابع عشر الميلادي ،على يد قلة من العلماء منهم الشيخ أبو محمد دفين تبلكوزة (ت 1035 هـ/1625 م) والشيخ عبد الله الجوزي (ت 1035هـ /1625) ،ثم بعدها ورث إقليم توات تلك النهضة الفكرية التي فاضت بعدد من العلماء في مختلف الفنون خاصة الدراسات الشرعية منها والتي تشهد على ذلك النوازل العديدة .كنوازل الغنية والزجلاوي ثم بعدها انتقلت الظاهرة العلمية إلى إقليم تيدكلت تحديداً قصر أقبلي ،فظهرت عائلات علمية كعائلة بن مالك وعائلة كنته [1] .

و لعل تطورها هذا النشاط الثقافي والفكري يعود أساساً إلى :

1- بعد المنطقة عن مراكز الصراع السياسي ،و تميزها بالهدوء ،مما أتاح المجال للنشاط العلمي ،و جعل الإقليم مركز جذب للعلماء الفارين من مناطق الصراع السياسي .

2- انتشار الزوايا العديدة في سائر المناطق الصحراوية والتي جمع شيوخها بين العلم والعمل فساهموا في تبسيط المعارف العلمية ، وتنافست الزوايا في استقطاب الطلبة مما كان له أكبر الأكثر في نشر العلم النافع والجاد .

3- مساهمة سكان المنطقة خاصة الميسوري الحال منهم بدعم الطلبة والمدرسين بالأوقاف والهبات وبسط النفقات .

و مما يلاحظ على الحركة الفكرية بالمنطقة ظهور التنوع الفكري ،و إن غلبت عليها العلوم الشرعية خاصة الفقه والتفسير والنحو والتصوف

[1] الطاهري (أحمد): الدر المنظوم شرح مقدمة أبن اجروم – غرادية : مطبعة الواحات د.ت . ص :61 .

والأصول والتنجيم وهو ما ينم عن تنوع فكري بالإقليم .ومن أبرز العلماء خلال هذه الفترة الزمنية تذكر بعض نماذج منهم :

- **الشيخ سليمان بن علي بن عمر :**

ينتهي نسبه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ولد بفاس بالمغرب ،و كان سبب مجيئه إلى توات أن سكانها طلبوا من شيخه المجيء ،فأمر تلميذه سيدي سليمان بن علي بالتوجيه إلى توات[1]

و ذلك سنة 581هـ ،و استقر بأولاد أعمور بأولاد عيسى فتزوج بها وحفر بئراً ورزق بإبن سماه مولاي عيسى وقد ذاع صيته في القصور المجاورة قصر الحدب ،و السبخة وبوزان والغربة وزاوية عيسى وميمون وزاوية الغريب وتوريرت وسعد الله والشيخ وأقبور وأولاد بوحفص وأولاد الشيخ أمحمد وأولاد مهدي وأولاد باحو .

و بعد عجزه انتقل إلى قصر أولاد وشن فتردد عليه أهل تمنطيط ،أما ابنه عبد الله فلازم قصر أمدر الذي توفى فيه ،أما علي فقطن أولاد مطاع إضافة إلى إبنه عبد الحق أما عبد الصمد فتوجه إلى بلاد التكرور .و بقدومه إلى أولاد وشن أصبحت له الكلمة واستطاع سنة 610هـ/1213م .

أن يقنع أهل المخزن أن يسددوا بالتقسيط ،و ذلك بفضل علمه وتقواه وحججه التي أقنع بها هؤلاء من أن سكان توات أناس فقراء ،وقد ذاع صيته نتيجة لكرامات ،فأصبح محطة زوار إقليم توات ،وقد وافته المنية سنة 670هـ/1271م [2].

- **الشيخ البكري بن عبد الكريم :**

---

[1] نفسه.

[2] محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق التمنطيطي ،" مخطوط درق الأقلام في اخبار المغرب بعد الاسلام " . خزانة بن عبد الكريم لمطارفة ، ص :20.

باختصار شديد ،ولد هذا الشيخ سنة 42هـ/1632م ،أخذ علم النحو عن الشيخ محمد بن علي الوجروتي ، وأخذ عن الشيخ سعيد قدورة الجزائري ،و عن الشيخ الحاج محمد القاضي التواتي ، وله إجازة في الديار المصرية عن الخرشي .تولى مهنة التدريس ،و استفاد من علمه ابناؤه الأربعة (محمد الصالح – عبد القادر – محمد عبد الكريم ،و طلاب كثيرون).

وتميز بكثرة اجتهاده في سائر العلوم الشرعية ، وتولى القضاء بالديار التواتية ثم كافة الصحراء [1]

- **الطالب أحمد التواتي :**

بن محمد بن عمر من بني علي بن عبد الله ثم بني عيسى بن محمد ثم اشتهر بالتواتي كان صالحاً متعبداً مواظباً على العبادات معمراً للأوقاف مداوماً على الأوراد يخرج إلى خلوته في الضحى ثم بعد ذلك يرجع إلى بيته ليطالع كتبه ويتحدث مع أهله ثم ينام ، أخذ طريقة التصوف الناصرية والغازية والورد عن شيخه سيدي أحمد بن عبد القادر عن الشيخ سيدي محمد بن ناصر الدرعي ، توفى رحمه الله عام 1138هـ/1725م [2]

و فيما يخص بعض الخزائن التي قمت بزياتها ، حيث أجريت جرداً لأهم المخطوطات ،و أماكن تواجدها :

1- خزائن منطقة قورارة :

الخـزانة	أصحـابها
– خزانة أولاد سعيد	– السيد الجوزي عبد الرحمان
– خزانة زواية الدباغ	– السيد الدباغ أحمد بن محمد

[1] ابو عبد الله الطالب محمد بن ابي بكر الصديق البرتلي : فتح الشكور ، تحقيق محمد ابراهيم الكتائي ، محمد حجي ، د.م :د.ن ، د.ت ، ص : 42

[2] محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق : نفسه ، ص 23.

– خزانة لمطارفة	– أبناء عبد الكريم بن عبد الكبير
– خزانة قصر الشيخ (أولاد سعيد)	– السيد الشيخ ابراهيم عبد القادر
– خزانة تابلكوزة	– السيد بولغيتي عبد الكريم بن باحمو
– خزانة بادريان	– السيد الصوفي محمد سالم
– خزانة فاتيس	– السيد باسيدي احمد بن العربي

2– خزانة منطقة توات الوسطى :

الخـزانة	أصحـابها
– خزانة الشيخ سيدي أحمد بن ديدي (تمنطيط)	**– السيد البكري أحمد**
– خزانة أولاد علي بن موسى (تمنطيط)	**– السيد محجوبي عبد العزيز**
– خزانة سيدي سالم (تمنطيط)	**– السيد البكري الجازولي**
– خزانة زواية سيدي البكري	**– السيد بكراوي محمد بن سالم بن صافي**
– خزانة تمنطيط (اولاد سيدي وعلي)	**– السيد بكراوي الحاج أحمد بلقاضي**
– خزانة كوسام	**– السيد شاري الطيب**
– خزانة ملوكة	**– السيد بلبالي عبد الرحمان بن عبد العزيز**
– خزانة آدغا	**– السيد سليماني علي**
– خزانة بني تامر	**– السيد مبدوني امحمد**
– خزانة سيدي حيدة (بودة)	**– السيد محمد جعفري**

وما زالت القائمة طويلة .

2– خزائن تيدكلت :

الخـزانة	**أصحـابها**
– خزانة أقبلي	**– السيد عقباوي عزوز**
– خزانة أولف	**– السيد بالعالم محمد باي**
– خزانة سأهل أقبلي	**– السيد بن مالك عبد الكريم**

- **التراث العلمي لمنطقة توات :**

تتمثل خاصة في المخطوطات المتنوعة التي ظلت تحتفظ بها أسر تتوارث العلم أبا عن جد كعائلة بن مالك بقصر الساهل ، والعائلة الكنتية في زاوية بونعامة أو ترجع إلى شيوخ زوايا ورثوها أو جمعوها بواسطة الإقتناء ،و هذه المخطوطات متفاوتة في عددها ومختلفة في عناوينها .

بيد أن مخطوطات تيدكلت تشترك مع عناوين توات ،نظراً لأن إقليم تيدكلت هو نهاية إقليم توات ،ناهيك عن علماء تيدكلت الذين تميزوا بالترحال مثل أبي الأنوار عبد الكريم التينلاني ،هذا ما أدى إلى بروز عائلات علمية بقيت محتفظة بالعلم في أسرها ، وكان من وراء هذا الزخم العلمي الخليط السكاني الذي إستقر بهذا الإقليم من مختلف الجهات كليبيا وتونس وورجلان ومتليلي والهقار ، وكل هذه العوامل تركت بصماتها على الحركة الفكرية بالمنطقة، وأشتهر خزائن المخطوطات بتدكلت هي :

- خزانة عائلة أبا الشيخ بتقراف .
- خزانة الشيخ عبد الرحمان بن محمد البرمكي بأولف .
- خزانة عائلة عقباوي بزاوية بونعامة .
- خزانة عرق شاش بأقبلي .
- خزانة الشيخ بن مالك بالساهل .
- خزانة المنصور بأقبلي .
- خزانة الطالب دادة بأولف [1].

أما عن مضمون هذه المخطوطات فإنها تكاد تنحصر في التأليف والشروح والدراسات العلمية كالتصوف الذي كثرت شروحه وحواشيه خلال هذه

[1] أحمد الطاهري، المصدر السابق، ص : 153.

الفترة ، فأصبح ظاهرة في حد ذاته فكثر إنتاج العلماء نتيجة لسيطرة روح التصوف على الحياة العلمية والإجتماعية ، وتميزها بالزهد والموعظة والإلتزام بمبادئ المتصوفين والزهاد فنجد كثيراً من الكتب والرسائل والتقاليد والمنظومات ،تتناول الأذكار ، والشروح الخاصة بقصائد الصوفية ومن أمثلة ذلك :

- مخطوط التشوف إلى رجال التصوف للشيخ أبي العباس أحمد بن أبي القاسم التادلي يقول في إحدى صفحاته " من أراد أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله في قلبه لأن الله ينزل العبد عنده حيث ما أنزله العبد من نفسه " أنتهى من كتابته يوم الخميس 03 شعبان 1273هـ على يد كاتبه محمد بن الطاهر الحسني [1].

- مخطوط الجرعة الصافية والنفحة الكافية للشيخ المختار الكنتي يتناول العقيدة والتصوف كتبه علي بن محمد بن عبد القادر [2].

- مخطوط في ذكر الصلاة على النبي وفضائله للشيخ الفقيه أبي عبد الله محمد بن سليمان الجزولي نسخة عمر بن عيسى بن حمد بن عبد الله بن خليف الطيار ، وذلك يوم الجمعة 12 من شهر رمضان 1257هـ[3].

أما اللغة العربية فهناك العديد من المخطوطات :

- مخطوط منحة الإعراب المسمى تحفة الأخبار وطرفة الأصحاب لمحمد بن محمد عمر الحضرمي مخطوط من طرف عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن الحاج محمد بن عبد الصمد سنة 1353 [4].

- شرح الألفاظ الأجرومية في أصول علم العربية لخالد بن عبد الله بن أبي بكر الأزهري يقول المؤلف " ينتفع بها المبتدئ إن شاء الله " .

---

[1] خزانة سيد احمد العالم، أولف .

[2] نفس المصدر .

[3] خزانة أبا الشيخ أولف .

[4] خزانة سيدي احمد العالم .

- مخطوط في اللغة العربية وقواعدها خطه علي بن العربي بن محروس بتاريخ 16 من رمضان 1242 هـ .

- مخطوط في مصطلح الحديث بعنوان شرف الطالب في أسمى المطالب لإبن الخطيب

القسنطيني خطه الشافعي بن عمار البلغيثي سنة 1303هـ [1].

تعد المخطوطات المدروسة بإقليم توات ، عبارة عن مخطوطات مفردة (غير متعددة الأجزاء) إن بيانات النسخ من إسم الناسخ ومكان النسخ وتاريخه سمة ظاهرة في مخطوطات توات ، وهي عادة ما تكون في الصفحة (الغاشية) الأخيرة في النصف مكتوبة على شكل هرم مقلوب

إن إسم الناسخ يذكر عادة بعد إنتهاء كلام المؤلف ويكون مسبوقاً بعبارات نحو:

" انتهى على يد العبد الفقير الحقير الذليل المذنب الراجي عفو ربه فلان بن فلان "

إن تاريخ النسخ يذكرفي كثير من الأحيان بالوقت واليوم والشهر والسنة الهجرية وربما ذكرت السنة فقط ، مثلاً : مخطوط البرد الموشى في قطع المطاعم والرشا للشيخ المختار الكبير ، فرع من تأليفه يوم الجمعة 1112 هـ .

إن لتاريخ النسخ أهمية كبرى تتزايد بمرور الزمن فهو المعيار الذي يتحدد من خلاله قدم المخطوط وأهميته ومدى الوثوق به من ناحية قربه من عصر المؤلف لذلك نجد معظم النساخ إهتموا بإثبات تاريخ الفراغ من نسخ المخطوط.

[1] خزانة عائلة بالشيخ بتقراف .

إن التعرف على أول صفحة من المخطوط هو ما يضمن معرفة بدايته وسيسمح بالتأكد من صحته إذا قورن بنسخة أخرى، والشيء نفسه مع نهاية المخطوط حيث يمكن التعرف على خاتمة النص وعلى إسم الناسخ ومكان النسخ وتاريخه ، فهي تلقي ضوءاً كاشفاً على تاريخ المخطوط وقيمته ومدى الثقة به وبمؤلفه [1].

إن الخط الذي كتبت به هذه المخطوطات هو خط مغربي يتميز باستقامته وكتابة القاف بنقطة من الأعلى والفاء بنقطة من الأسفل ، إن معرفة نوع الخط يمكن أن توظف في تقريب زمن كتابته عندما يفقد تاريخه ذلك أن لكل عصر نوع من أنواع الخطوط التي شاع أكثر من غيره [2].

ومن المشاكل التي تعاني منها مخطوطات الإقليم ، إن بعض أصحاب الخزائن يعتقدون أن المخطوطات محل بركة بحيث يتركونها سنوات عديدة دون تصفحها بالإضافة إلى النكبات الطبيعية وخاصة الأمطار ، فهناك مخطوطات إنمحت بكاملها والبعض الآخر إنمحى جزئيا فكانت ضحية لعوامل التعرية والإهمال ، بالإضافة إلى أن هناك من أفراد العائلة أو الباحثين من يأخذون مخطوطا أو أكثر بهدف الإستفادة منه فلا يرجعونه لأصحابه ، كما حدث في خزانة سيدي أحمد العالم بآولف التي يلاحظ الباحث أن الذين أخذوا المخطوطات قاموا بعملية انتقائها وأخذوا المخطوطات الهامة ، وهذا ما أدى إلى عدم الثقة بين الباحثين وأصحاب الخزائن .

وإن من يقف على تلك الثروة العلمية من المخطوطات العديدة التي تركها علماء توات رغم الصعوبات وعدم وجود الوسائل في تلك الفترة يتضح جلياً أنهم كانوا في جهاد إنتصروا فيه على كل الصعوبات والمشاق ، وأنهم

---

[1] عبد الستار آكلو : المخطوط العربي ، جدة ، مكتبة مصباح ، 1989، ص : 287 .

[2] نفس المرجع ، ص : 11 .

نشروا العلم في كل ناحية من نواحي إفريقيا – مما كان له الأثر البالغ – في إثراء الثقافة العربية والإسلامية .في الكثير من مناطق غرب إفريقيا الآهلة بالعلماء والأدباء حتى جمعت أسماء مشهورين منهم في رسالة الشيخ محمد الحسن القبلاوي ،وفي تاريخ الشيخ الحاج محمد بن عبد الكريم البكري فوجدو 97 عالماً منهم المدرس والقاضي والأديب والمؤلف والطبيب والمجاهد وبفضلهم إنتشر العلماء في توات وما حولها من الأصقاع وقد تخرج من مدارسهم وكتاتيبهم الكثير من الفقهاء وحفظه القرآن الذين قاموا بدورهم في نشر الإسلام وتعليمه وتحفيظهم كتاب الله في البوادي والأرياف.

فقد كان معلموا القرآن من بلدة أقبلي آولف وتيمي وتنجورارين يتوجهون إلى ورقلة ومتليلي وناحية سعيدة وتيارت وغيرها من الجهات كالهقار التي كان بها الشيخ أحمد بن محمد بن الحاج عبد القادر بن محمد بن مالك القلاني فقد علم فيها واستفاد منه الكثير من أهل الهقار حتى أنه كان يعلمهم العقائد الدينية باللغة البربرية ،و كان يجيد حفظ القرآن بكثير من الروايات وله معرفة جيدة لفن التجويد والأداء [1] وكان بمالي والنيجر وإفريقيا السوداء.

– يعتبر المخطوط وثيقة تاريخية موثوقة شاهدة على مؤلفها ، وزمن تألفيها.

الخاتمة:

1– ارتبط شيوخ منطقة توات بمحيطهم الحضاري، فكانوا على معرفة بأوضاع المسلمين، فهم على صلة بالعشائر الصحراوية، سواء بتوات، أو بالقبائل السودانية المجاورة.

2– ارتبط وجود توات الاجتماعي، ونشاطها الثقافي بالطريقة القادرية التي حمل لوائها الشيخ سيدي أحمد البكاي.

[1] محاضرة : لمحات من خلال المخطوطات التي لم تطبع عن علماء وأدباء توات ، للشيخ : الإمام محمد باي بالعالم التي ألقاها في الأسبوع الثاني المنعقد بادرار (13–20 مارس) 1980، ص : 3. 5 .

3- سمح نشاط منطقة توات الثقافي والعلمي، والدور الذي قامت به الزاوية التواتية بإغناء الثقافة العربية الإسلامية بالعديد من المخطوطات الخاصة أو العامة التي تناولت مختلف المواضيع العلمية الهامة مثل مخطوط شفاء الأسقام العارضة في الظاهر والباطن من الأجسام للشيخ سيدي أحمد بن محمد الرقادي.

4- لقد تجسد البعد التعليمي بعكوف الكثيرين من مشايخ توات المشهود لهم بكفاءة، على تدريس آداب اللغة العربية، وأصول الدين، إلى جانب انشغالهم بالتدريس في المساجد والزوايا، ولذلك اشتهرت بعض المدن والقصور التواتية بنشاطها الثقافي والتعليمي على مر العصور، فكانت كل من مدن: تمنطيط، وأدرار، وبودة، وملوكة، وزاوية كنتة بمثابة أماكن تعليمية رئيسية بمنطقة توات وأولاد سعيد، وتيميمون بمنطقة قورارة، وأقبلي بمنطقة تيديكلت.

وأهم ما يمكننا أن نستخلصه من هذا المقال في منطقة توات محلياً ووطنياً ما يلي:

أ- كانت توات ولا تزال محط أنظار العلماء والطلبة على مستوى الإقليم.

ب- قيام هذه الزوايا في كل مناطق توات بدور ثقافي وأدبي وفقهي هام تمثل في نشر العلم والقضاء على الأمية، وتعريف المجتمع بدينهم وشريعتهم.

جـ- تولى التدريس والتعليم علماء وفقهاء كانوا محط أنظار الناس.

د- ظهور ذلك الانسجام العجيب بين مؤسسة الزاوية، وباقي مؤسسات المجتمع التواتي، فقد كان القضاء مثلا يتولاه علماء وفقهاء أفاضل هم أنفسهم يتولون التدريس، مثل القاضي عبد العزيز البلبالي.

هـ- كانت الزاوية في توات هي المحرك الأساسي لكل فعل ثقافي وعلمي على مستوى كل مقاطعات المنطقة، كما كانت تحظى في آن واحد بالاحترام والهيبة، والعمل بكل ما يصدر عن أساتذتها من فتاوى وأحكام وتوجيهات.

وخلال هذا النشاط العلمي، الذي انعكس على الإرث المكتوب، المتمثل في خزائن للمخطوطات خلفها علماء، فهناك خزائن علمية، تمتلكها عائلات تحتوي على عناوين لمخطوطات في مختلف العلوم، كما هو الشأن بمركز أحمد بابا بتمبكتو، إضافة إلى مخطوطات ترجع ملكيتها إلى أشخاص نجدها منتشرة في الصحراء وخاصة بمنطقة توات وأقاليمها الثلاثة، وتتفاوت المحافظة على هذه المخطوطات من جهة إلى أخرى، ويرجع ذلك إلى مستوى الوعي الذي تتميز به العائلة المالكة للمخطوط، وبالتالي فمخطوطات توات تتفاوت من حيث العدد والمحتوى العلمي.

بعض خزائن المخطوطات بتوات:

1- **خزانة:** سيد أحمد العالم، أولف.

2- **حزانة:** أبا الشيخ، أولف.

3- **خزانة:** عائلة بالشيخ بتقراف.

4- **خزانة:** عبد الحق التمنطيطي: مخطوط درق الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام، خزانة عبد الكريم لمطارفة.

قائمة المراجع:

1- البرتلي أبو عبد الله: فتح الشكور، تحقيق محمد ابراهيم الكتائي. د. ت.

2- الطاهري (أحمد): الدر المنظوم شرح مقدمة ابن أجروم، مطبعة الواحات غرداية، 1986.

3- د. بشار قويدر ود. مختار حساني: فهرس المخطوطات بولاية أدرار، المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ وعلم الإنسان والتاريخ مطبعة عمار قرفي، باتنة، الجزائر 1999.

4- عبد الستار أكلو: المخطوط العربي، مكتبة مصباح، جدة 1989.

5- مبروك مقدم: المخطوطات داخل الخزانات الشعبية خلال نهاية القرن 19، وبداية القرن20، بتوات، وقورارة، وتيديكلت.

6- مطاع الطرابيشي: في منهج تحقيق المخطوطات، طبعة دار الفكر دمشق. 1995م.

7- عبد العزيز بن عبد الله: الموسوعة المغربية للإعلام البشرية والحضارية، المغرب 1976.

8- محمد عبد الكريم البكري: جوهرة المعاني في التعريف بعلماء القرن الثاني. الورقة رقم 15.